الفصل الأول

فكرة مختصرة عن الأديان

▪ الدين الصابئي المندائي :

بادئ ذي بدء أمر الحي العظيم ملك النور السامي (الله) في عُلاه أن تصلب الأرض التي كانت تغمرها المياه الآسنة (مي سيانه) وأن ترفع السماء وتزين بالشمس والقمر والنجوم وأن يدور كل منها بمدار ومنح الشمس ضياء والقمر نور والنجوم سناء، وأمر أن تحول المياه الآسنة إلى مياه نقية جارية (يردنا) بعد أن نقل لها المياه الطاهرة من العالم النوراني العلوي... وأمر أن تكون الحرارة الحية لتبدأ الحياة، فازدهرت الحياة على الأرض وتفجرت الينابيع وجرت المياه في الأنهار والجداول، ونبتت الأشجار والأعشاب واخضرت المراعي والحقول وكثرت الأثمار، ثم خلق الحيوان الأليف والكاسر وبعد زمن خلق آدم وحواء ليعمر الأرض ، وتزوج آدم وحواء ليزداد عددهم ولتبتهج بذريتهم الدنيا، وبأمر الحي العظيم نزل الملاك منداهيي (جبريل الرسول) ليزرع في قلب آدم وحواء الإيمان وينور عقلهم لكي لا يغويهم الشيطان، وقال للملاك منداهيي ، علمه الأسماء والوصايا كلها ، وليحب بعضهم بعضًا ، وليعتني بعضهم ببعض عناية العيون بالأقدام، ولا يترك أحدهم الآخر حتى تنتهي أعمارهم في هذا العالم، وليثمروا مثل الأشجار المثمرة، ولا يكونوا كالزرع الرديء، يشرب الماء ولا يعطي الثمر، وفي البدء خلق العالم العلوي في أيام البروناية البيضاء (البرونايي) في خمسة أيام التي لا تحسب من عمر الزمن:

- في اليوم الأول انبعث الحي العظيم بهيئة ملك النور السامي.
- في اليوم الثاني انبعث الحي العظيم بهيئة ماري دربوثا أليثا ملك العظمة.
- في اليوم الثالث انبعث الحي العظيم بهيئة منداهيي عارف الحياة.
- في اليوم الرابع انبعث الحي العظيم بهيئة الحق الكامل.
- في اليوم الخامس تفجرت الينابيع وجرت المياه (اليردنا) ونبتت الشتلات وبدأت الحياة.

خلق الحي العظيم (الله) ثلاث ملائكة نورانيين مبجلين ناداهم من اليردنا والنور وخلق النشماثا (النفس والروح)، وطلب من الملائكة أن يكملوا ما بدأه وفق تعليماته وأوامره، لأنه حسب حساب للعوز والنقصان الذي سيحصل للإنسان وأراد أن يكون بعيد عن ذلك، وفعلا حصل ما لا تحمد عقباه، عندما نادى الملاك أباثر ابنه الملاك بثاهيل من المياه الآسنة على عجل، فجاء ناقص ضوء وناقص نور، ولهذا أصاب الإنسان المرض والأوجاع والشيخوخة والموت في هذه الدنيا، بينما الملائكة لا يشيخون ولا يمرضون ولا يموتون، لا يحترون ولا يبردون ولا يجوعون، أنقياء طاهرون.

هذا ما تنقله لنا الكتب المندائية، وهذه بعض مفاهيم الدين المندائي في الخلق والتكوين بكل إيجاز، وسنعود لشرحها بتفصيل أوسع بعد أن نأخذ فكرة عن الأديان الأخرى التوحيدية وغير التوحيدية.

الدين اليهودي :

قصة الخلق عند الدين اليهودي تتمثل في ثماني أوامر إلهية تمَّ تنفيذها في ستة أيام واليوم السابع راحة.

في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر، ظلمة وروح الله ترف على وجه المياه، وقال الله فليكن نور فكان نور :

– اليوم الأول خلق الله النور وهذا أول أمر إلهي (ليكن النور) وفصل النور عن الظلمة فسمي النهار والليل.

– اليوم الثاني خلق الله الجلد وهذا ثاني أمر (ليكن الجلد) ليفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه فوق الجلد، سمي الجلد السماء.

– اليوم الثالث أمر الله المياه التي تحت السماء أن تتجمع في مكان واحد، وأن تظهر اليابسة وهذا الأمر الثالث سمي (الأرض) و(البحر)، والأمر الرابع عندما أمر الأرض أن تنتج عشبًا وبقلاً وأشجار ثمر.

– اليوم الرابع خلق الله الأنوار أي الشمس والقمر في جلد السماء (الأمر الخامس) ليفصل النور عن الظلمة وتكون علامات للأيام والفصول والسنين.

– اليوم الخامس أمر الله البحار أن تفيض بزاحفات حية، وأن تطير الطيور في جلد السماء (الأمر السادس) أي خلق الطيور ، ومخلوقات البحر وأمرها بالتكاثر.

– اليوم السادس أمر الله اليابسة أن تخرج مخلوقات حية (الأمر السابع) أي خلق البهائم والوحوش والدبابات (الدابات) ثم خلق الإنسان ذكر وأنثى على صورته وشبهه (الأمر الثامن) وباركهم الله وقال لهم: (أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض).

– اليوم السابع بعد إكمال خلق السماوات والأرض "فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل.

الدين المسيحي :

يشترك الدين المسيحي في قصة الخلق هذه التي لا تختلف عن قصة الخلق عند الدين المندائي الذي سبق كل الأديان التوحيدية، لأن الدين المسيحي جاء مصدقاً لكل ما جاء في التوراة، واعتبر التوراة (العهد القديم والإنجيل العهد الجديد) وكلاهما الكتاب المقدس للمسيحيين أو كما يسموه كتاب الحياة.

ولأن الأديان السماوية الموحدة المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في ثلاث سور بينات تشترك بقواسم مشتركة مع وجود اختلاف في طبيعة الأحداث التي حدثت في أيام الخلق.

الدين الإسلامي :

إن الله سبحانه وتعالى لما مزج عنصري التراب والماء صار لدينا طيناً ، فلما أنتن الطين صار حمأ مسنون مصور على هيئته ، فلما يبس صار صلصال ثم نفخ فيه من روحه فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله حمد ربه ، فقال الله: يرحمك ربك.

يعتبر الماء هو العنصر الأساسي الذي خلق منه الله كل شيء حي سوى الملائكة والجن مما هو حي لأن الملائكة خلقوا من نور ، والجان خلقوا من نار قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرض كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[1].

وقال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)[2].

وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[3].

الخلق والتكوين عند الصينيين (الميثولوجيا الصينية) :

في العهود المظلمة في قديم الزمان كانت السماء والأرض ملتصقين ، وكان الفضاء الرحب فراغ شبه البيضة العظيمة الحجم ، داخلها ظلام دامس ، ولا وجود للمكان ، ولا تعرف الاتجاهات... في داخل هذه البيضة العظيمة يعيش كائن حي عظيم القوة في حالة سبات عميق ، وتمر عليه ثمانية عشر ألف سنة وهو على هذا الحال ، وفجأة أيقظته من سباته حرارة عالية كادت تقتله ،

١- القرآن الكريم : سورة الأنبياء - الآية ٣٠
٢- القرآن الكريم : سورة فاطر - الآية ١١
٣- القرآن الكريم : سورة غافر - الآية ٦٧

فاضطر إلى كسر قشرة البيضة العظيمة، فتطايرت مواد هذه البيضة، الخفيفة منها ارتفع إلى الأعلى لتشكل السماء، والثقيلة منها نزل إلى الأسفل لتكون الأرض وكان هذا الكائن الحي ينمو بسرعة فائقة، وتزداد قوته مع الزمن بحيث تمكن من رفع السماء مسافة خمسة وأربعين كيلو متر، ولكنه لم يتحمل الجهد الهائل فخارت قواه ومات، وبعد وفاته تحولت عيناه إلى الشمس والقمر، وأنفاسه إلى الريح الأربعة والسحب والغيوم، وشعره ولحيته تشكلت منهم النجوم، وأطرافه إلى أربعة أقطاب الأرض، ودمه إلى أنهار وبحيرات وبحار، وصار المطر والندى من عرقه... هذا ما كان أمر الرجل بان جو.

أما كيف خلق الإنسان وتكاثر، تقول الأسطورة إن هناك امرأة تتجول بين السماء والأرض بعد أن فصلهما عن بعضهما بان جو، ورأت صورتها على وجه الماء، فقامت بصنع دمى من الطين ونفخت من روحها فيها ثم جعلتهم إناثًا وذكورًا فصار الجنس البشري وتكاثر.

تحكي لنا قصة الحضارة للفيلسوف والمؤرخ الأمريكي ويليام جيمس ديورانت (١٨٨٥- ١٩٨١) أنه زار الصين والتقى بفيلسوف ومفكر صيني كبير وقال له ديورانت : هل تصدِّق مثل هذه الأساطير؟

فردَّ عليه الفيلسوف الصيني : هل عندك قصة أخرى تستطيع أن تقنع مليار ونصف صيني بها؟

أجاب ديورانت: لا

فقال له الفيلسوف الصيني: أفضل لك أن تصمت!!

وفي الصين القديمة أساطير كثيرة منها أنه كان رجل وامرأة ليس هناك غيرهما في الكون، تزوجا فحملت المرأة وولدت، ورأت أن الحمل متعب والولادة تصاحبها أوجاع، ولأنها لها قدرات الآلهة فمسخت نفسها بقرة، ومسخ زوجها نفسه ثور، وتلاقحا فحملت وأنجبت، ولم يرق لها ذلك فحولت نفسها نعجة فحول زوجها نفسه إلى كبش، وتكررت المشكلة، وهكذا حولت نفسها إلى لبؤة

فتحول إلى أسد واستمر الحال إلى أن تكونت كل الحيوانات البرية والبحرية والطيور وحتى الكائنات الدنيا.

وهناك أسطورة تقول خلقَ رجلٌ عظيمٌ القوة وأمر أن يعمر الأرض فصنع له معولاً من الصخر وبدء بتعمير الأرض الخربة، تعب وعرق ونتن، فمن عرقه تكونت الأنهار، ومن القمل والصواب في رأسه والضراع في جسده تكونت هذه المخلوقات.

الخلق والتكوين في الحضارة اليونانية القديمة (الإغريق) :

كان يملأ الكون فراغ عظيم كله فوضى عارمة، ولم يكن وجود للشمس والقمر وليس هناك جبال وأنهار بمعنى لم تكن هناك أرض أي لا مكان ولا زمان، بعدها قسم هذا الفراغ نفسه إلى إلهين... آلهة السماء (أورانيوس) وآلهة الأرض (جايا)، وقامت جايا بتشكيل الكون وكأنها ترسم لوحة فنية، بعدها تزوجت جايا من أورانيوس وأنجبوا ذرية تكاثرت مع الوقت.

الخلق والتكوين في الحضارة الفرعونية :

تقول الأسطورة الفرعونية كان هناك بحر من الماء يحمل في موجاته الخير والشر وداخله يحوي بذور لكل شيء حي، وفي وقت من الأوقات في بداية الخلق والتكوين خرج كائن حي من بطن البحر، فرفع الأرض من رحم البحر، إنه الإله (آتوم) بعدها صعدت الإلهة (رع) لكي تكون الشمس، بعدها تلاقح آتوم مع رع فأنجبا ولد وبنت، الولد اسمه (شو) إله الريح والهواء، والبنت اسمها (تيفنوت) آلهة الخصب والنماء، فازداد عددهم وعمروا الأرض.

الديانة البوذية :

الدين البوذي نسبة إلى مؤسسه غاوتاما بوذا (٥٦٦ ق . م – ٤٨٥ ق . م)، وتعاليمه تعتبر من الأديان الرئيسية في العالم، وينتشر أتباع هذا الدين في

الصين والهند والتبت وسريلانكا ومنغوليا وكوريا ، النيبال واليابان وفيتنام وتايلاند ، بورما ولاوس وتايوان وكذلك كطوائف في بعض دول أوروبا وأمريكا.

العقيدة البوذية تعتمد على الجواهر الثلاثة :

– الأول : جوهرة الإيمان ببوذا كمعلم مستنير (الرجل المتيقظ)، بدايتها حركة رهبانية بإراهانيه نشأت في شمال الهند ثم انتشرت... كان بوذا يرفض نظام الطبقات الاجتماعية الذي تؤكد عليه الديانة الهندوسية، ويرفض وصاية وسلطة رجال الدين (الكهنة).

– الثاني: الإيمان بتعاليم بوذا (دارما) وتعني الحقيقة.

– الثالث : الاهتمام بتنظيم المجتمع البوذي ليكون مستنير ، والاهتمام بالرهبان والعناية بهم لأنهم نذروا نفوسهم لمساعدة الآخرين ، ويطلق عليهم (السانغا) وعليهم الوصول بأتباع هذا الدين إلى الاستنارة والتيقظ.

لقد جردت البوذية الكون من مفهوم الخالق الأزلي (مصدر خلاص الجميع) ، ولا تعارض البوذية تعدد الآلهة ، ويمكن لهذه الآلهة أن تموت ثم تنبعث من جديد في كينونة أقل شأنًا ، وليس الآلهة من خلق الكون ولا يمكنها التحكم بالكائنات الحية.

كذلك ترفض البوذية تقديم الأضاحي والقرابين للآلهة وترى البوذية أن الحياة الإنسانية أفضلها على الإطلاق ، لأنها تستطيع الوصول إلى مرحلة الاستنارة والتيقظ، ورغم أن الآلهة من درجة أعلى لكنها منشغلة بملذاتها الذاتية، وهذا يشغلها عن التحرر ولذا فإن الإنسانية عند بلوغها الاستنارة تستطيع التحرر.

وتوصي البوذية أتباعها باتباع الوصايا الخمسة الأخلاقية:

– الكف عن القتل.

– الكف عن أخذ ما لم يُعطى.

– الكف عن شرب المسكرات والمخدرات.

– تعاليم بوذا توصي بالمحبة ولتسامح ولتعامل بالحسنى والتصدق على الفقراء وترك الغنى والترف وضرورة ضبط النفس وحملها على التقشف.

وبتنفيذ هذه التعاليم يمكن القضاء على الأصول الثلاثة للشرور: الشهوة، الحقد، الوهم.

الديانة الهندوسية :

الديانة الهندوسية لا تتبع نبيًا بعينه ولا تعبد إله واحد، ولا تؤمن بمفهوم فلسفي واحد، ولا تتبع نمط موحد للشعائر الدينية، إنها أسلوب حياة.

في القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد تكونت الأوبانيشادية الأولى التي تمثل الأساس النظري للديانة الهندوسية وهي (ختام الفيد) وهذا بطبيعتها ترفض كثرة ممارسة الطقوس الدينية ، ووظفوها في إطار إيماني واحد وثبوتها في المخطوطة الهندوسية (بهاغافادغيتا)، وكتبوا الملاحم الكبيرة باللغة السنسكريتية مثل رمايانا ومها بهارتا، بعدها تمَّ جمعها في أسطورة عن الحكام والحروب القديمة في الهند، وتحوي رسائل دينية وفلسفية، وهذه تمثل الميثولوجيا الهندية خير تمثيل.

والهندوسي هو من يؤمن بالفلسفات التي وردت في (الفيدا)، وتؤمن فلسفة الفيدا أن الله وسائر الأحياء من نوع واحد (براهمن)، وأن الله يتجلى في ثلاثة وجوه: برهمن اللاشخصي ، وبرماتما (الذات العليا) ، وبهجفان (الغني) ، بينما سائر الأحياء شقوقه، وأن لله قدرات ثلاث:

– القدرة الروحية (الباطنية).
– القدرة الخارجية (المادية).
– القدرة البينية (الأحياء).

لذلك يعتبرون الوجود مؤلفًا من الله وقدراته الخارقة، والهندوس دائمًا يبحثون عن الذات الروحية وليس عن المادة، وهم لا يبحثون عن الخلاص وإنقاذ

الروح، لأنهم يؤمنون أن الروح سليمة وليست بحاجة إلى خلاص أو إنقاذ، لأن الإنسان كل ما يحتاجه هو فهم اختلاف الجسم المادي عن ذاته الروحية، وأن عملية البحث عن الذات روحيًا توصلك إلى الآلهة، وهذا يتحقق أحيانًا عندما يمارس اليوغا لغرض التحكم بالعقل والإحساس، ثم العثور على الذات في القلب، وعلى الإنسان أن يسلك ثلاثة دروب:

– درب العمل الصالح بإجراء الطقوس الدينية وتقديم القرابين إلى الملائكة وتسمى (كرم يوغا).

– درب العلم التخميني لغرض التوحد بالآلهة ويسمى (غيان يوغا).

– درب محبة الآلهة والتيتم بها وتسمى (بهلتي يوغا).

إن الهندوسية نشأت من العقيدة الفيدية لأن معظم الطقوس الهندوسية تمجد النصوص الدينية التي وردت في كتاب الفيد وتعني الحكمة والمعرفة في اللغة السنسكريتية، حيث تصور حياة الآريين وكيفية الارتقاء للحياة العقلية من السذاجة إلى الشعور الفلسفي وفيه أدعية تدعو إلى الشك والارتياب وفيه تأليهًا يرتقي إلى وحدة الوجود وأجزاء الفيدا تتألف من أربعة كتب:

– المهابهاراتا: ملحمة تشبه جلجاميش والإلياذة والأوديسة، وتتحدث عن الأعمال والمهن، وإرشادات الحياة والقضايا والوصايا.

– الرامايانا: ويتحدث عن نشأة الآلهة وأساطيرها والكون.

– الأوبانيشاد: ويتحدث عن الطقوس العبادية والأناشيد والقرابين وطريقة تقديس الآلهة.

– المانوسمرتي: ويتحدث عن حقوق الطبقات الأربعة الهندية وهي: البراهمة وهي الأعلى شأنًا ثم طبقة الكشاتريا، وتليها طبقة الفايشيا، وتأتي طبقة الشودرا في السلم الأخير، وهم المنبوذين الذين لا يحق لهم شيء في دين الهندوس.

نظرة الهندوسية إلى الآلهة:

التوحيد: في الحقيقة لا يوجد عندهم توحيد مطلق ولكنهم إذا أقبلوا على أحد الآلهة عبدوه بكل جوارحهم بحيث ينسون الآلهة الأخرى ويعتبرونه رب الأرباب.

التعدد: يؤمنون أن لكل شيء في الطبيعة نافعًا أو ضارًا آلهة يجب أن تعبد، كالماء والهواء والأنهار والجبال وهكذا.

التكليف: جمع الكهنة الآلهة في إله واحد أخرج العالم من ذاته اسمه (براهما) لأنه موجود، و(فشنو) لأنه حافظ، و(سينا) لأنه مهلك، فمن يعبد أحد هذه الآلهة الثلاثة كأنه عبدها جميعًا، أو عبد الواحد الأعلى، لأنه لا يوجد فارق بينهم لأنهم جميعًا آلهة.

البقرة عند الهندوس حالة مقدسة، ولها تماثيل في المعابد والمنازل والميادين، ولا يجوز إيذاءها أو ذبحها، وإذا ماتت تدفن بطقوس دينية.

كذلك يعتقد الهندوس أن روح الآلهة حلت في إنسان اسمه (كرشنا)، وفيه التقى الإله بالإنسان، بمعنى حل اللاهوت بالناسوت ويعتبر كرشنا عند الهندوس بمثابة السيد المسيح عند المسيحيين.

لو تابعنا المصادر التي تتحدث عن الدين الهندوسي لاعتبرنا أنه من أكثر الأديان روحانية، وهي من الناحية النظرية تعتبر من أبسط الأديان، ولكنها من الناحية العملية يصعب فهمها، فهي تدعو إلى الاندماج في الروح الخالدة التي يسموها (براهما).

ورغم اختلاف الفرق الدينية وكثرة الطوائف ولكنهم يشتركون في جوهر واحد، إن جميع الأشياء تضمحل وتختفي بالتدريج ولكن الحياة في مجموعها خالدة لا تزول ولابد من وجود روح سامية خالدة غير مرئية وراء هذا العالم المادي المتقلب المتغير.

وهم يعتقدون أن النبات والحيوان ومختلف الكائنات ومن ضمنها الإنسان تموت لتولد من جديد، وقد تتطور خلال ولادتها المتكررة بعد موتها من نبات إلى حيوان، ومن حيوان إلى إنسان ومن إنسان إلى إنسان آخر أرقى، ترشحه طهارته وصفاءه وتؤهله للاندماج في براهما الذي أصل كل المخلوقات.

ويعتقدون أن المجتمع ينقسم إلى طبقات أعلاها رجال الدين والمتصوفون يليها المحاربون، ثم التجار والعمال، فالإنسان قد يولد من طبقة راقية أو من طبقة منحطة لكنه في المستقبل يولد إنسان راقي أو منحط تبعًا لسلوكه في حياته، أي حسناته وسيئاته التي يحاسب عليها، ولهذا الذي كان في الطبقة الدنيا وقام بالالتزام بالمفاهيم الدينية الهندوسية، وكثرت حسناته في ولادته الجديدة يكون ضمن الطبقة الراقية.

وهم يعتقدون أن جميع الكائنات الحية جزء من الخالق الأكبر، ولغرض الخلاص يجب نبذ الأنانية والنظر إلى الناس على أنهم أعضاء في جسد واحد، روافد وأنهار تصب في محيط واحد.

أسطورة الخلق عند اليابانيين :

وردت بشكل واضح في كتاب كوجيكي أسطورة الخلق والتكوين اليابانية في ديانة شنتو.

في تاريخ كل أمة هناك أسطورة تتغنى وتتباهى بها هذه الأمة، وهذه الأسطورة هي جزء من تراث وتاريخ الأمة اليابانية، تقول الأسطورة في البداية كانت الآلهة وهذه الآلهة لها ذرية إذ تولد ذكر وأنثى بعدها تموت، وبعد حين صدر أمر من عظماء الآلهة إلى اثنين من الآلهة وأسمائها (إيزاناكي) و(إزاتامي)، وهما شقيقان رجل وامرأة، أن يخلقا اليابان، فوقفا على جسر السماء العائم، ورميا رمح خارق مرصع بالجواهر والألماس ثم رفعاه إلى السماء فنزلت منه أربعة آلاف وثلاثة وعشرون قطرة، كل قطرة شكلت جزيرة في الماء، تألف

منها أرخبيل ثم شاهد الشقيقان كيف تتزاوج الضفادع في الماء فتعلما منها التناسل، وهكذا تكون الجنس الياباني ونشأت سلسلة مقدسة نقية أنشأت الأباطرة (الأسرة الحاكمة) التي مازالت سلالتها حاكمة حتى الآن.

واليابان لديها خمسة جزر كبيرة، أكبرها جزيرة (هندو) أو (هوشنو) التي تعادل نصف مساحة اليابان ، وموقع اليابان جعلها دولة بحرية بامتياز وهي بلاد جميلة ، وذات مناخ ممطر تزدهر فيها النباتات وتزدان في ربوعها المناظر الجميلة الخلابة.

وهناك قصة مشابهة لتكوين الجزر في البحار والمحيطات الشاسعة ، حيث تحكي واحدة منها عن أسطورة أن نسر عظيم أراد أن يعبر المحيط الهادي ، وحين قطع منتصف المحيط هطل مطر غزير فدعا الآلهة لإنقاذه ، فاستجابت الآلهة ، ورمى المحيط من داخله حممًا وحجارة شكلت جزر ، استطاع هذا النسر العظيم أن يحط على واحدة منها.

الشعوب تزخر بمثل هذه الأساطير وتدونها وتعتبرها من تاريخها وتراثها الذي تعتز به وتتناقله عبر الأجيال ، بداية شفاهية يتم تدوينها مثل أسطورة جلجامش والإلياذة ، والشاه نامة والأوديسا ولمها بهارتا وغيرها من الأساطير التي أصبحت تسمى علم الأساطير (الميثولوجيا) التي لا تخلو منه حتى الأديان الموحدة ، العلمانيون يسمونه ميثولوجيا ، والروحانيون يسمونه خوارق ومعجزات والله أعلم.

ولغرض الإطلاع على تاريخ الأديان وبدايتها ونشأتها علينا الإطلاع على مقالة بقلم الأستاذ المهندس عبد الاله سباهي، والمنشورة في مجلة آفاق مندائية الغراء التي تصدر في بغداد من قبل مجلس شؤون الصابئة المندائيين في الوطن الأم العراق ، والأستاذ عبد الاله سباهي غني عن التعريف ، فهو شخصية مندائية ثقافية له عدة مؤلفات قيمة ، وهو ناشط مندائي عمل وقدم خدمات جليلة لأبناء الطائفة في العراق والدنمارك وهو يحمل أفكار تقدمية ، يسعى من خلالها إلى

التطور والتحديث ومواكبة العصر والاهتمام بالشباب لضمان المستقبل عن طريق جذب النشء الجديد لحضور الطقوس الدينية ، وتهيئة سلسلة من المحاضرات التي تشرح الأفكار ولمفاهيم الدينية فكر وطقوس على أصولها ، وتحبيب ذلك إلى نفوسهم.

أنا من مناصري تقديم المحتوى الأصلي للفكر المندائي ، وإظهار اللُب الحقيقي للدين المندائي ، فالدين لا يكمن بنوع القصب والبردي الذي يستعمل في الطقوس ولا في نوع الجرة التي تستعمل في طقس الزواج ، ولا في نوع القماش وتفصيل رداء الرستة التي تستعمل في طقس الصباغة ، فهناك بدائل للقصب والبردي وسعف النخيل والجرة رغم توفرها في كثير من الدول التي لجأ إليها المندائيون ، وقد تقبلوا الآن هذه البدائل.

تبقى المشكلة الدينية في تطوير إمكانات وقابلية رجال الدين الأفاضل ، لأنهم هم المعلمون والحافظون لهذا الدين ومتى توضع ضوابط لترقيتهم من درجة دينية إلى أخرى ، ومتى تكون لدينا مدارس مندائية وتؤسس كلية للدراسات المندائية لإيصال العلوم الدينية المندائية الخالصة إلى رواد المعرفة والحقيقة من منهلها الأصلي، ومتى نخطط للاستفادة من إمكانات الدول المتقدمة في تطوير مناهجنا، ومتى نفجر طاقات شبابنا ومبدعينا ، سيبدأ عصر جديد لأمتنا المندائية وستظهر الحقيقة الناصعة لجوهر هذا الدين ، وأنا متفائل أن المستقبل في صالحنا.

تاريخية الأديان

جاء في مقال الأستاذ عبد الاله بعنوان : تاريخية الأديان، ما يلي:

(يبحث الموضوع ماهية الأديان ، كيف ظهرت الديانة وما هي مقوماتها الأساسية ، وأين نحن كمندائيين الآن ، بدء لم يخف على القارئ أن للأديان والتدين جذور تمتد عميقًا في التاريخ الموغل في القدم، ولا أقصد هنا الأديان التوحيدية المتطورة، وإنما أعني الشعور الديني الأول للإنسان، فقد عثر العلماء على آثار تدل على أن الإنسان القديم كان على معرفة أنواع من الوعي الديني تعود للفترة التي اكتشف فيها أدواته الحجرية الأولى والتي ميزته عن عالم الحيوان الذي ينتمي إليه.

إن اكتشاف الإنسان لتلك الأدوات البدائية ووعيه الأول للبوادر الدينية ، هما المؤشران الأساسيان لمنظور الحضارة الإنسانية ، فيرجع العلماء كل تطور تكنولوجي إلى تلك الأدوات الأولية وكل تقدم فكري أصله تلك البوادر الدينية البدائية الأولى التي استخدمها الإنسان القديم والتي تمَّ العثور عليها والتعرف بها وعند العلماء تصور واضح عنها وعن تطورها ، ولكن الصعوبة تكمن في مواكبة تطور البوادر الدينية للإنسان.

فما هو الدين بشكل عام ؟ :

يقول هربرت سبنسر إن الأديان على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة تتفق ضمنًا أن وجود الكون هو سر يتطلب التفسير ، ويرى أن الدين هو الاعتقاد بالحضور الفائق لشيء غامض وعصي على الفهم.

ويقول ماكس موللر الفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني البارز : إن الدين كدح من أجل تصور ما لا يمكن التعبير عنه أنه توق إلى النهائي.

وفي مقدمة تاريخ الأديان يقول العالم رافيل إن الدين هو اشتراط الحياة الإنسانية بإحساس بالاتصال بين الفعل الإنساني وعقل خفي يتحكم بالكون، وما ينجم عن ذلك من شعور بالغبطة.

ويستمر تفسير العلماء للدين على هذا المنوال، فيعود العالم البريطاني هربرت سبنسر فيفسر الدين أنه عملية استرضاء وطلب العون من قوى أعلى من الإنسان يعتقد أنها تتحكم بالطبيعة وبالحياة الإنسانية وهذه العملية تحوي عنصرين: واحد نظري والآخر تطبيقي، فهناك اعتقاد بوجود قوى عليا يتلوه محاولات لاسترضاء تلك القوى، ولذلك فإن الاعتقاد تتبعه ممارسات وكل هذه التفسيرات للدين غير كاملة، فهناك آراء أخرى مخالفة ذات وزن.

فالديانة البوذية مثلاً ترفض فكرة الآلهة وإنما هي نظام أخلاقي بالدرجة الأولى وإيمان بدون آلهة، والبوذي لا يهمه من خلق الكون، وكيف وإنما كل همه أن يكافح من أجل تحرير روحه من سلسلة التقمصات في عالم الألم والشقاء، وهو يعتمد على قواه الذاتية بذلك، ولا يستعين بأية آلهة لتساعده في كفاحه هذا، ولكي يشمل تعريف الدين جميع الأديان يجب أن يهتم بما هو مشترك بينهما، وأن جميع الأديان تعني بما هو قدسي وعلاقته بما هو دنيوي.

والدين هو طبيعة الأشياء القدسية والتعبير عنها وعلاقتها ببعضها أو علاقتها بالأشياء الدنيوية، الدين هو معتقد تشترك فيه جماعة معينة من الأفراد وهم داخل هذه المجموعة يشعرون بالصلة والترابط بعضهم ببعض داخل وحدة اجتماعية خاصة بهم، وبذلك يكون تعريف الدين هو النظام الذي يشمل مجموعة من المعتقدات والممارسات التي تدور حول مواضيع مقدسة معزولة عما هو دنيوي بشتى أنواع التحريم، وهي تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في مجموعة معنوية واحدة.

إن الإنسان يشعر بالقدسي من خلال حالات انفعال ووجد ذاتية حيث يظهر القدسي نفسه مختلفاً كل الاختلاف عن شعور دنيوي، والأديان جميعها البدائية

منها والمتطورة ما هي إلا تراكمات لتلك التجليات والانفعالات القدسية ولكل إنسان تجربته الخاصة في ذلك المضمار، وقد يؤمن الإنسان البدائي أن القدسي قد تجلى له بشجرة أو حجارة أو بأي مخلوق آخر، ويتطور الإيمان ليعرف الله عن طريق الأديان التوحيدية أن كل إنسان ربما جرب الوعي والشعور بالقدسي بقدر أو بآخر، وأن الشعور بالقدسي مغروس في النفس الإنسانية.

لقد تطور مفهومنا بالقدسي حتى تحول إلى جملة من التشريعات الأخلاقية والتقوى السلوكية، ولكن الحالة الأصلية للوعي القدسي تبقى هي تجربة انفعالية وجدية غير مادية، حيث يشعر الإنسان بإحساس من الخوف والانجذاب إلى قوى لا تنتمي إلى هذا العالم المادي، وبذلك فإن كل ظاهرة دينية سوف تولد خبرة فردية يعانيها الإنسان في أعماق ذاته بمعزل عن تجارب الآخرين، وهذه التجربة جزء من سيكولوجية الإنسان، أي أنها حالة نفسية تظهر بشكل لا إرادي، وهي حالة سبقت الإله المشخص في تاريخ الأديان.

ومهما تظاهرنا برجوعنا للعقل في حياتنا إلا أن كلاً منا خاض تجربة الشعور بالقدسي بشكل أو بآخر، وبشكل يختلف في شدته عن الآخرين، وغالبًا ما تصب تلك التجارب الشخصية في عقيدة مصاغة بقالب واضح، ثم تنشأ حولها طقوس تصبح معروفة للجماعة تساعدهم في دفع شدة المجابهة المباشرة مع الإحساس بالقدسي، ثم تتحول تلك الطقوس من ردة فعل إلى حافز لإثارة التجربة الفردية بالقدسي، ثم تذوب تلك الخبرات وتلك الممارسات الفردية في خبرة واحدة مشتركة لمجموعة معينة من البشر، وتتحول إلى دين الجماعة.

إن الدين كشعور هو ظاهرة رافقت الإنسان منذ استقلاله عن مملكة الحيوان، ولكن المؤسسات الدينية ظهرت بعد ظهور المدن وتطور الحضارة وتطور علاقات الإنتاج وعليه فإن الأديان هي التجارب الجماعية المتأتية من تجارب الأفراد الدينية والتي تمَّ صياغتها بقوالب فكرية وطقسية وأدبية لها مردود عال عند الجماعة، وبذلك يمكن إرجاع قوالب الأديان كافة إلى ثلاث ظواهر:

- المعتقد.
- الطقس.
- الأسطورة.

هذه المكونات الثلاثة الأساسية لحقتها في الأديان المتطورة مكونات من أفراد الجماعة بصياغة تجربته الوجدية الخاصة كدين خاص به، إن ما يريده القدسي من البشر هي أفكارهم، حيث يعيش في أفكار الناس، أما العبادات والطقوس فهي لا تمس القدسي بشيء وإنما تنعش الفكر الديني الذي يحمل صورة المقدس داخله.

أعتقد أننا كونا فكرة عن نشوء المعتقد الديني، ولكن الدين هو معتقد وطقوس وأساطير، فإن الطقوس هي ردود فعل للتجربة الوجدية للإنسان، فعندما تكون التجربة انفعالية وقد تصل بشدتها إلى الحد الذي يستدعي القيام بسلوك ما من أجل إعادة التوازن النفسي والجسدي الذي غيرته تلك التجربة الشديدة، وأخرجته من حالته النفسية الاعتيادية، فربما كانت ردة الفعل رعشة أو إيقاع أو حركات ورقص حر، وهي السلوك الاندفاعي الأول الذي صدر عن الإنسان وتحول تدريجيًا إلى طقوس متقنة في إطار التجربة الدينية، ثم تحولت تدريجيًا ثم نظمت بشكل واضح ومتقن ترتضيه الجماعة، ويرون فيه تعبيرًا عن تجربتهم الخاصة.

والطقس يتبلور ويصقل على مر الوقت ويكون بذلك قد شكل مع المعتقد أساسًا في دين الجماعة بدلاً من أن يكون ارتباطه بتجارب فردية، وهذا لا ينفي أن تبقى بعض التجارب الفردية وإن غلفت بإطار عام كما هو الحال عند الصوفية والدراوشة والشامانات وغيره.

وتتحول تلك الطقوس كما قلنا من حالة كونها ردة فعل للتجربة الوجدية إلى وسيلة لاستحداث تلك التجربة وإنعاشها من فترة إلى أخرى، ولذلك نرى كل الأديان تؤكد على الطقوس، وتراها ركنًا أساسيًا في الدين، ومع ذلك فكما أن

المعتقد الديني بدون ممارسات طقسية يظل فلسفة وفكر ديني ، وليس دين ، وكذلك فإن الطقوس من دون ارتباطها وتوظيفها للفكر الديني تتحول إلى ممارسات سحرية أو غيرها من الممارسات التي توظف لغرض التأثير على سلوكية الإنسان ، مثل تعزيز الشعور بالانتماء للوطن كما في الزي والأناشيد الوطنية ورفع العلم وغيرها... أو توظف لجعل الفرد يندفع في التضحية بحياته لأجل الوطن ، مثل طقوس الجندي المجهول ووضع إكليل الزهور ، وتعظيم الشهادة وغيرها.

وقد وظفت الطقوس أحيانًا بعيدًا عن الأهداف الإنسانية كما حدث في ألمانيا الهتلرية وكيف وظفت أناشيد فاغنر والتحية النازية وغيرها من الطقوس في خدمة الشعور النازي لدى الألمان ، وربما كان تأثيرها أكثر وقعًا على الشعب الأماني من خطب هتلر ، لذلك تؤكد أكثر الأديان تطورًا على ربط الطقوس بالمعتقد الديني بشكل فعال.

ولغرض شرح المعتقد الديني وشرح تبرير طقوسه للناس ظهرت الأسطورة والتي كتبت بشكل أدبي راق ساعدت في فهم المعتقد وحفظه ، وأعطت تفسيرات مقنعة في حينها للجوانب غير المقبولة في عقول البعض بما لها من أسلوب أدبي شيق ومؤثر ، فنرى تأثير أسطورة الخلق أخذت المكان الأول في أغلب أساطير الأديان ، فترى تأثير أسطورة الخلق البابلية في أساطير الأديان القديمة واضحًا ومؤثرًا حيث تقول لم تكن هناك أرض في الأسفل ، لم يكن هناك سوى آلهة العماء القابعة وراء الزمن والمعارضة لأي حركة أو فعل ، ثم جاء الإله مردوخ ليبتدئ حياته مع سيرة حياة الكون الذي أخرجه من لجة العماء البدني... الخ.

وهذه الأسطورة عند مقارنتها مع أسطورة الخلق في الدين اليهودي نرى مدى تأثيرها عليه وعلى عقول البشر في ذلك الوقت ، تقول أسطورة الخلق اليهودية وكما وردت في التوراة : في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت

الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفرف فوق الماء... الخ.

والمندائية تصف عملية الخلق بصورة غير بعيدة عن ذلك مع إعطاء سبب لحلول قوى الظلام في هذا العالم عن طريق اشتراك الروهة والأشرار السبعة مع ابثاهيل في عملية الخلق تلك.

والأساطير إن لم تكن موظفة لغرض ديني تصبح قصص خرافية، وفي كثير من الأحيان نرى بعض الطقوس تأتي لتبرر تلك الأساطير، وكلما تطورت الأسطورة وتعقدت؛ نرى الطقوس أكثر تعقيدًا، مثال ذلك الكرصة عندنا وما يرافقها من طقوس ومحرمات، إضافة إلى المكونات الأساسية للدين وهي المعتقد، الطقس، الأسطورة... هناك مكونات أخرى ظهرت كعوامل مساعدة ومتممة وضمن قياسات تاريخية واجتماعية خاصة وهي الأخلاق والشرائع.

إن الفارق بينهما وبين المقومات الأساسية هي أن المعتقد والطقس والأسطورة هي عبارة عن ممارسات ومعتقدات وأدب ينظم سلوك الأفراد تجاه عالم المقدسات، أما الأخلاق والشرائع فإنها تنظم بالأساس سلوك الأفراد ببعضهم، وفي الغالب تأتي الأخلاق والشرائع الدينية كبدائل عملية عن أسلوب الإكراه والقوة في العلاقات الاجتماعية، وقد تطورت الشرائع والأخلاق مع تطور وسائل الإنتاج وتعقدت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عنه... مثل الزكاة والأمانة وتحريم الربا وغيرها.

وبعد هذا كله أين نحن كمندائيين من تلك التجارب الوجدية الدينية، وما هو موقفنا الآن من أساطيرنا وطقوسنا؟، كل واحد منا قد يكون مر بتجربة من هذا النوع فربما ذكر منداهيي أو هيبل زيوه أو شعر بشوق للبس الرستة والصباغة في النهر، وعلى الرغم من أننا قد ابتعدنا كثيرًا ومنذ زمن عن الفكر المندائي وذلك بسبب إهمال رجال الدين نشر الوعي الفكري واكتفوا بالطقوس وغالوا إلى حد التزمت فتحولت تلك الطقوس لتصبح وكأنها هي الدين، وحتى

الطقوس أخذت تتناقص وتختفي الواحد بعد الآخر، بعد أن أصبح العديد منها مستحيل التطبيق بسبب تطور المجتمعات والظروف، وكما ترون فإن الحياة أخذت تفرض علينا سلوكيات أبعدتنا عن الدين، والمسألة عند شبابنا تأخذ أبعاد أخطر وأشد، فنحن قد يشدنا بالمندائية طقس معين أو ذكرى معينة، فما الذي يشد أبناءنا للدين وخاصة هنا في بلدان المهجر.

هل وضعنا الفكر المندائي بين أياديهم؟ كل ما يعرفونه عن ذلك الفكر هو ما سمعوه من آبائهم أن المندائية جملة فكر ديني نير، ونظرته للدين نظرة إنسانية تقدمية مسالمة تدعو إلى الرأفة بالطبيعة وبمخلوقات الله، وقد قبلوا ذلك لثقتهم بنا على السماع، وهذا لا يكفي للجيل الجديد، الحاد الذكاء والكثير الشك الذي يبحث ويدقق كل شيء، فهل وضعنا نحن - أي من اطلع على ذلك الفكر بقدر أو آخر - برنامج يساعد الشباب على الإطلاع ومعرفة الحد الأدنى على الأقل من الفكر المندائي؟.

هل طقوسنا سهلة وميسرة ومشوقة تشدهم إلى الدين؟ ونحن هنا في أوروبا ودول المهجر نمر بمحنة بهذا الخصوص، فعملية الحصول على زوجة مندائية ربما أسهل بكثير من عملية الحصول على قصب الأندرونا أو الجرة التي تكسر في المهر أو الطريانة وغيرها من التفاصيل التي ليست من صلب الدين بشيء، وإنما هي أمور يصر عليها رجال ديننا دون وعي بالنتائج ودون مبرر ديني أصلاً.

إن أبناءنا يمرون بمحنة أخرى هنا، وكما يقول المثل قد فقدوا المشيتين... إنهم لم يعتادوا ولم يحبوا هذه الأوطان الجديدة ولم يقبلوا قيمها أو يعتادوا عليها، وفوق ذلك إن تلك الأوطان تعددت واختلفت لغاتها ومناخها وعاداتها، فما الذي سيجمع من يولد في نيوزلندا مثلا بمن يولد في الدنمارك.

ثم إن أبناءنا لم يحملوا الذكرى الطيبة الجميلة التي نحملها عن وطننا العراق، لقد فقدوا هويتهم ولم يبق لهم غير الهوية المندائية، فكيف نجعلها محببة لديهم

لتشدهم إلى بعضهم؟ ثم هل حاولنا إيجاد مركز إعلامي يأخذ على عاتقه المحافظة على العلاقات بين المندائيين وصيانة أصولهم، وقد توزعوا في كل بلدان العالم، ويوفر لهم التواصل فيما بينهم، هل سعينا لحملهم على العيش في تجمعات متقاربة ليحافظوا على صلات الود والقربى لحين عودتهم إلى الوطن؟ تلك العودة التي ليس لها سقف زمني محدد، وهل عملنا على شد المندائيين إلى الوطن بطرق عملية حديثة؟.

إنني ومن خلال صفحات آفاق مندائية وغيرها من المجلات المندائية أدعو المجالس والجمعيات المندائية وكل حريص إلى دراسة المشاكل الجديدة التي تواجه المندائية والتي وضعت أمامنا الآن ورغمًا عنا، والسعي لإيجاد حلول جماعية لها، كأن تنظم طريقة إيصال الحد الأدنى من الفكر المندائي إلى كافة المندائيين، ثم ما هو ذلك الحد؟ كيف يجب أن نطور الطقوس ونجعلها في متناول الجميع، تخدم الفكر المندائي، وتكون مقبولة وممكنة؟ كيف نوفر العدد الكافي من رجال الدين؟ وكيف نذلل صعوبة طراستهم؟ وما هي مواصفات رجل الدين؟ وهل ستبقى الطريقة المسلكية المتبعة هي معيار ترقيتهم دون التأكد من ثقافتهم الدينية والعامة؟ هل تظل الرستة كما هي دون أن تخدم الوظيفة التي وجدت من أجلها، وهي لا تحميهم الآن من برد ولا تميزهم عن الآخرين؟ كيف نحافظ على اللغة والتراث المندائي المتوارث وكل رجل دين يستحوذ على قسم منه، ويتركه من بعده لأولاده وهو عرضة للضياع والتلف؟ كيف نطور علاقتنا مع المراكز العالمية المهتمة بدراسة المندائية في العالم؟ وكيف نقدم المندائية بشكل صحيح لدوائر المعارف وللشعوب الأخرى؟ كيف نحافظ على هويتنا المندائية؟ وكيف... وكيف...

إنها دعوة للجميع لبعث كل تلك الأمور وغيرها وبلورة الحلول لها، والعمل على عقد مؤتمر عام للمندائيين يضم أصحاب الرأي لدراسة المسألة والاتفاق على حلول تحظى بالإجماع، يلتزم بها الجميع، أرجو للجميع التوفيق والسداد.

الخلفية الميثولوجية للأديان :

تتحدث أقدم الأساطير المدونة في ثقافات الشرق القديم ، وهي الأساطير السومرية (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد) ، عن خلق العالم ابتداء من الهيولي المائية الأولى ، ونستطيع اعتمادًا على عدد من النصوص السومرية التي لم تصلنا كاملة ، إعادة بناء أسطورة التكوين السومرية على الشكل التالي :

– في البدء كانت الآلهة (نمو) ، وهي المياه الأولى التي انبثق عنها كل شيء فيما بعد.

– ثم إن هذه المياه الأولى أنجبت توأمين... هما السماء (آن) وهو مذكر ، والأرض (كي) وهي مؤنث ، وكانا ملتصقين ببعضهما في كتلة غير متمايزة ، تدعوها النصوص السومرية بجبل السماء والأرض.

– ومن تلاقح السماء والأرض ولد الهواء (إنليل) ، وبدأ يشعر بالضيق من عدم وجود متسع له للحركة بين أبويه ، فعمد بقوته الخارقة إلى فصل السماء عن الأرض ، فسمت السماء وانبسطت الأرض وراح الهواء إنليل يرتع بينهما.

إن عناصر قصة الميلاد المائي هذه تعود إلى الظهور في الميثولوجيا المصرية:

– في البدء لم يكن سوى الأوقيانوس المائي العظيم المدعو (نون) في أعماق هذه الهيولي المائية الأولى ، كانت تحوم روح بلا هوية ، تركزت في داخلها تدريجيًا كل الممكنات وصار اسمها (آتوم) وتعني الاكتمال ، وفي الوقت نفسه العدم.

– ثم إن آتوم هذا تجلى عند بدء الزمن تحت اسم آتوم – رع ، وأنجب الآلهة والبشر.

وفي رواية أخرى لقصة الخليقة المصرية نجد أن إله الشمس (رع) كان كامنًا في حضن المياه الأولى (نون) تحت اسم (أتوم) ، ولخوفه على نوره من الانطفاء انطوى داخل برعم لوتس ظل يهيم على غير هدى في أعماق المياه ، ثم جاء وقت سأم فيه من حالته الشبيهة بالعدم ، فانبثق بإرادته الخاصة وتجلى تحت اسم

(رع)، وبعد ذلك أنجب الهواء (شو)، وهو مذكر، والرطوبة (تفنوت) وهي مؤنث، وقد أنجبا بدورهما الأرض (جيب) وهو مذكر، والسماء (نوت) وهي مؤنث، وكانت السماء والأرض في حالة التصاق وعناق دائم، ولكن الهواء شو الذي يؤدي هنا دور أنليل السومري تسلل بينهما فرفع السماء على ذراعيه نحو الأعلى، ووطئ الأرض بقدميه، ومنذ ذلك الحين وجيب ينوح ويبكي على فراق زوجته نوت.

إن أطول وأكمل نص في التكوين قد قدمه لنا البابليون ورثة الحضارة السومرية، وهو يعود بتاريخه إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وقد وجدت منه نسخة شبه تامة في مكتبة الملك آشور بانيبال في مدينة نينوى يعود تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد.

في هذه الأسطورة يحل الإله البابلي مردوخ محل الإله القديم انليل كبطل للتكوين، وهو الذي يفصل الكتلة المائية البدئية المدعوة (تعامة)، أو الأم (هابور) أصل كل الأشياء والتي تصورها البابليون على هيئة تنين مائي هائل، ليصنع منها السماء والأرض وبقية مظاهر الوجود، فبعد معركة فاصلة مع هذه الآلهة وجندها؛ قطع مردوخ رأسها ثم شقها إلى قسمين فانفتحت كما الصدفة، فرفع نصفها الأول إلى الأعلى فصار سماء، وضع تحتها العوارض حتى لا يتسرب ماءها، وبسط الثاني فصار أرض.

ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم شؤون السماء والأرض فعمد إلى السماء وزينها بالنجوم وأظهر كويكبات أبرج السنة، وصنع القمر وأوكله بالليل، وصنع الشمس وأوكلها بالنهار، وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل، ثم التفت إلى الأرض فأبرز معالمها وصنع الجبال والتلال، وفجر من باطنها ينابيع وعيون، وأسال أنهارًا وخلق الغيوم وحملها بالمطر الغزير، مهيأ بذلك لظهور الحياة النباتية والحيوانية، وأخيرًا خلق الإنسان.

لقد وصلتنا هذه الأسطورة منقوشة على سبعة ألواح فخارية، الألواح الستة الأولى منها مخصصة لوصف فعاليات الإله الخلاقة، أما اللوح الأخير فمخصص لوصف جلوس الإله مردوخ على العرش في القصر الجديد الذي بناه له رفاقه الآلهة، واحتفالهم بنصره على تنين الماء، وخلق العالم وترنمهم بأسمائه الخمسين التي يعبر كل واحد منها عن صفة من صفاته أو خاصية من خصائصه، ولعل هذا ما أوحى إلى المحررين التوراتيين الذي استلهموا هذه الأسطورة في فترة السبي البابلي بفكرة أيام الخلق الستة واستراحة الخالق في اليوم السابع، ودبّجوا قصتهم التي تقوم على العناصر ذاتها التي قامت عليها أسطورة التكوين البابلية وبقية أساطير التكوين في الثقافات الشرقية.

وعلى الرغم من أن قصة الخليقة قد تصدرت الإصحاحات الأولى من سفر التكوين، وهو أول أسفار التوراة العبرانية، إلا أن إشارات متفرقة إلى فعاليات إله التوراة يهوه في التكوين قد وردت في غيرها من الأسفار، حيث نجد يهوه منهمكًا قبل الخلق على طريقة مردوخ في السيطرة على المياه الأولى وإخضاعها، أو في الصراع مع تنين بحري يمثل تلك المياه يدعى (لوياتان) أو راهب، نقرأ في سفر المزامير ٧٤:

(أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ بِقُوَّتِكَ. كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ. أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لِوِيَاثَانَ. جَعَلْتَهُ طَعَامًا لِلشَّعْبِ، لأَهْلِ الْبَرِّيَّةِ. أَنْتَ فَجَّرْتَ عَيْنًا وَسَيْلاً. أَنْتَ يَبَّسْتَ أَنْهَارًا دَائِمَةَ الْجَرَيَانِ. لَكَ النَّهَارُ، وَلَكَ أَيْضًا اللَّيْلُ. أَنْتَ هَيَّأْتَ النُّورَ وَالشَّمْسَ. أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تُخُومِ الأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا).

وجاء في المزمور ٨٩:

(أَنْتَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. عِنْدَ ارْتِفَاعِ لُجَجِهِ أَنْتَ تُسَكِّنُهَا. ١٠أَنْتَ سَحَقْتَ رَهَبَ مِثْلَ الْقَتِيلِ. بِذِرَاعِ قُوَّتِكَ بَدَّدْتَ أَعْدَاءَكَ. ١١لَكَ السَّمَاوَاتُ. لَكَ أَيْضًا الأَرْضُ. الْمَسْكُونَةُ وَمِلْؤُهَا أَنْتَ أَسَّسْتَهُمَا (١٢) الشِّمَالُ وَالْجَنُوبُ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا. تَابُورُ وَحَرْمُونُ بِاسْمِكَ يَهْتِفَانِ).

وجاء في المزمور ١٠٤:

(لِمُؤَسِّسُ ٱلْأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلَا تَتَزَعْزَعُ إِلَى ٱلدَّهْرِ وَٱلْأَبَدِ (٦) كَسَوْتَهَا ٱلْغَمْرَ كَثَوْبٍ. فَوْقَ ٱلْجِبَالِ تَقِفُ ٱلْمِيَاهُ (٧) مِنِ ٱنْتِهَارِكَ تَهْرُبُ ، مِنْ صَوْتِ رَعْدِكَ تَفِرُّ (٨) تَصْعَدُ إِلَى ٱلْجِبَالِ. تَنْزِلُ إِلَى ٱلْبِقَاعِ ، إِلَى ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي أَسَّسْتَهُ لَهَا (٩) وَضَعْتَ لَهَا تَخْمًا لَا تَتَعَدَّاهُ. لَا تَرْجِعُ لِتُغَطِّيَ ٱلْأَرْضَ).

وجاء في سفر أشعيا:

(استيقظي ، استيقظي ! البسي قوة يا ذراع الرب! استيقظي كما في أيام القدم، كما في الأدوار القديمة، ألست أنتِ القاطعة رهب، الطاعنة التنين؟).

في الحقيقة إن فكرة إخضاع المياه البدئية وقتل تنينها لم ترد إلى الميثولوجيا التوراتية من ميثولوجيا بلاد الرافدين فقط ، وإنما من الميثولوجيا السورية الكنعانية أيضًا ، ففي نصوص (بعل) و(عناة) التي وردتنا من ثقافة أغاريت الساحلية ، نجد الإله بعل أقوى وأفتى الأرباب ، يخضع المياه البدئية ، المتمثلة في الإله (يم) قبل أن يباشر مهامه في تنظيم العالم، وترتيب دورة الفصول التي تأتي بالمطر والثلج ، لخصب الأرض وحياة الزرع ، كما أنه يصرع التنين البحري (لوتان) الذي يظهر في النصوص التوراتية تحت اسم (لواياتان).

تقرأ في نصوص بعل الفقرة التالية وما يقابلها في سفر أشعيا التوراتي ، حيث يبدو وكأن المحرر التوراتي ينسخ حرفيًا عن النص الأوغاريتي.

النص الأوغاريتي: والآن تريد أن تسحق لوتان، الحية الهاربة، الآن أن تُجهز على الحية المتحوية ذات الرؤوس السبعة.

سفر إشعيا ٢٧ مزمور:

(في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي الشديد لواياتان الحية الهاربة. لوايتان الحية المتحوية. ويقتل التنين الذي في البحر).

نكتفي بهذا القدر من التوضيح لأهم الأديان التي ظهرت في الشرق ، ومنها الأديان الموحدة (الصابئة المندائيون ، اليهود ، المسيحيون ، المسلمون) ، وهناك

أديان قديمة قدم التاريخ، وهناك أديان غير موحدة، من هذا الموجز عن الأديان والخلفية الميثولوجيا لها مدخل لفهم دين الصابئة المندائيين، كدين يعتبره أتباعه جذر التوحيد الأول، لأنه نشأ في العالم العلوي وأن الحي العظيم (الله) خلق آدم وحواء صابئين مندائيين ، وعلَّمهما التعاليم والأسماء ، وغرس في عقليهما وقلبيهما وضميريهما وروحيهما الإيمان بوجوده وعظمته.

تطور الدين عبر الزمن :

لو درسنا تطور الدين عند الإنسان لرأينا أنه يشبه إلى حد بعيد تطور الإنسان نفسه ، بمعنى أن الدين تطور مع تطور الإنسان ، ووفق مراحل تاريخية من عمر الزمن ، وحقيقة الأمر أن الإنسان وحده الذي له دين ، لأن سائر الحيوانات تفتقر إلى الدين مثلما تفتقر إلى القانون والنظام والأخلاق ، لأن الإنسان له القدرة على الربط والعقد والتفكير ، وتقرير المواقف المختلفة ، ويمتلك العقل العاطفي مع ملكة الخيال والابتكار ، مما ساعده على التطور وصنع ما يحتاجه في حياته ، وهذه الإمكانات العقلية والذهنية والجسدية ساعدته في ارتباطاته الروحية والمادية.

والدين عنصر أساسي من تكوين الإنسان ، وهو مغروس في قلبه وحسه فيقال للإنسان عقل ، ويقال للإنسان دين ، وكلاهما من سمات شخصية الإنسان وتطوره عبر الزمن ، ويرتبط الإنسان بالدين بشكل عام وبدرجات متفاوتة من الإنسان وتطوره عبر الزمن ، ويرتبط الإنسان بالدين بشكل عام وبدرجات متفاوتة من الإنسان الذي يؤمن بالعلم كهدف للوصول إلى الرقي والتقدم ، إلى الإنسان الصوفي المعتدل إلى المتطرف الذي يرهب الناس للإيمان بدينه ومعتقده.

إذا لابد من وجود حس ديني عند الإنسان الذي تطور بتطور الإنسان ذاته ، فاختلف طبقًا لمراحل الإنسان وتطوره الثقافي والاجتماعي وتأثير بيئته عليه ، ومن هنا نشأت الأديان وتعددت وتنوعت أفكارها ، بدء بالإيمان بالأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ، وبذل الجهود لإرضاء القوى الخفية التي تسيطر على الطبيعة ، ومحاولة التقرب لها بالقرابين والأضاحي ، ثم تطورت إلى ديانات بدائية ، وتطورت مع الوقت إلى ديانات آمن بها الناس مثل الديانة السومرية والبابلية والفرعونية ، ثم الزرادشتية والكونفوشية والهندوسية والبوذية والمانوية... وغيرها ، وقسم منها بدأت فيها بوادر الأفكار التوحيدية ، إلى أن

ظهرت الأديان التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية، ولربما أن الديانة المندائية قد سبقت كل هذه الديانات لأنها تعتبر نفسها جذر التوحيد الأول.

ولقد أدرك الجميع أن الدين يترك أثرًا بليغًا في نفوس الناس وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم ، ولهذا لابد من دراسة العقائد والطقوس والشعائر الدينية لمعرفة الأسباب الحقيقية لنشوء هذا الدين، وتأثيره على طبائع الشعوب والأمم.

ولهذا يؤكد الباحثون المنصفون ضرورة التزام الباحث بالصدق والأمانة والحياد دون تعصب لدينه أو مذهبه أو ما يؤمن به ، وألا يخفي على العقول حقيقة الأمور ، في النتيجة لا يصح إلا الصحيح.

وعلى الباحث في الأديان وتطورها عبر الزمن أن يدرس بعناية ودقة حضارات بلاد الرافدين ، السومرية والبابلية والآشورية والحضارة الفرعونية ، الإغريقية والرومانية والفارسية والهندية ليطلع على حقائق الأمور ، وليستند في بحثه على شيء من الوثائق والآثار الموجودة فعلاً في المدن التاريخية ، وعلى مسار ضفاف الأنهر العظيمة مثل دجلة والفرات والنيل والأردن وكارون وغيرها ، وعلى هذه الضفاف بنيت الحضارات وازدهرت الأفكار ونشأت الأديان.

عبر كل العصور والناس تؤمن بوجود قوى روحية أو روحانية أكبر من قدرات البشر ، وهذه القوى لا يستطيعون لمسها أو رؤيتها ، ولكنهم آمنوا بهذه القوى باعتماد وجودهم على رضاها عنهم ، فقدموا لها كما أسلفنا القرابين والأضاحي ، وبنوا لها المعابد والهياكل ، ووضعوا فيها التماثيل التي ترمز إلى هذه القوى الإلهية لأنهم أرادوا أن يحسوا بها ويروها ماثلة أمامهم ، ويتقربون بها زلفى لهذه القوى الخارقة.

منذ اكتشاف السومريين للكتابة المسمارية ، والفراعنة للكتابة الهيروغليفية في الألف الثالث قبل الميلاد تطورت الأفكار والمعتقدات لجميع الأقوام المحيطة ،

ونمت الحلقات اللاحقة من البشرية حيث بدأ الناس يشعرون وبقوة أن هذا الكون يحكمه نظام، وأن هناك قوة خفية تتحكم فيه، ولابد من وجود خالق لهذا الكون العظيم ، وذهبوا إلى مذاهب شتى وفق تطورهم الفكري في الخلق والتكوين، وأمنوا أن هناك كائنات خفية تتحكم في هذا الكون، وأن لها قدرات تفوق قدرات البشر ، واعتقدوا أن هذه الكائنات تشبه البشر من حيث المأكل والمشرب والأسرة والزواج ولكنها خالدة... أي لا تموت، لأنها آلهة أعطت لنفسها الخلود ، وعندما خلقت البشر أعطت لهم الوجع والشيخوخة والموت ، واحتفظت بالحياة والخلود لها.

وبدايةً آمن الناس بتعدد الآلهة، إلى أن استقر الأمر على التوحيد بالله واحد لا شريك له في سلطانه ، وتعددت أسماؤه... ومن يتعمق بدراسة الدين الصابئي المندائي، ويطلع على الكتب الدينية، وخاصة كتابهم المنزل كنزا ربا الذي يؤكد على التوحيد ، وأن آدم رأس السلالة البشرية وهو أول الموحدين ، وهو أول أنبيائهم... ولكن الباحث سيصدم بحقيقة مرة، وهي كيف أن نبي الله آدم خلقه الله موحدًا وزوجته وذريته ليعلم الناس الذين هم ذريته التوحيد بالله ، ونحن نقول إن الدين تطور عبر الزمان كما تطور الإنسان.

بمعنى أن الإنسان لم يبدأ حياته عندما ظهرت السلالة البشرية موحِّدًا بالله ، والدلائل كثيرة ، فهؤلاء السومريون والبابليون في الألف الثالث قبل الميلاد ، وكذلك الفراعنة والإغريق والرومان اعتنقوا الأديان التوحيدية بعد هذا الزمان، فهل يا ترى الديانة المندائية كانت محصورة في منطقة محددة ولم يتعلم منهم الناس التوحيد ، ولكن كل الناس أبناء آدم وحواء كما تدلنا الكتب الدينية التوحيدية، سؤال يحتاج إلى جواب شافي رغم التبريرات التي ساقتها لنا الكتب الدينية المندائية بتعدد مراحل نشوء الإنسان على الأرض ، وكيف تغيرت (الدارات) ، وكيف توزعت الأقوام بعد كارثة الطوفان العظيم وانحصر المندائيون في سلالة سام بن نوح.

هناك تشابه كبير في الخلق والتكوين عند الأديان التوحيدية ، مع اختلاف التسميات فإن الله جل جلاله يُذكر في كتاب الكنزا ربا للصابئة المندائيين باسم الحي (الحي العظيم) أو الهيي ربي ، وعند اليهود في التوراة باسم (يهوه) أو إيلوهيم باللفظ العبري ، وأحياناً (أيل) ولذلك نرى أسماء الملائكة تنتهي بـــ"أيل"... مثل جبرائيل ، بمعنى رسول الله ، وعند المسلمين (الله) ، وعند المسيحيين (الرب)، وكلها تعني الحي القيوم الله جل جلاله.

لنلاحظ أوجه التشابه تقول التوراة في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله ترفرف فوق الماء، وقال الله ليكن نورًا فكان نوراً، وفصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهارًا والظلمة ليلاً، وقال ليكن جلدًا فاصلاً بين مياه ومياه فكانت السماء، إلى أخر القصة التي تتحدث عن الخلق والتكوين في ست أيام.

والأخوة المسيحيون يؤمنون بهذه القصة والتي تشبه إلى حد بعيد القصة البابلية حول الخلق.

أما الأخوة المسلمون فيذكر لنا القرآن الكريم في آياته البينات سورة هود: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[1].

وفي سورة الأنبياء: (أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأرض كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)[2].

أما الصابئة المندائيون وكما يذكر كتابهم المقدس الكنزا ربا نفس التعاليم...

بسم الحي العظيم

(قال ملك النور السامي قوله فكان كل شيء * نزل بثاهيل فرفع السماء وبسط الأرض ونادى ملائكة النار * وهبت الشمس ضياء ووهب القمر بهاء والنجوم

١- القرآن الكريم : سورة هود - الآية ٧

٢- القرآن الكريم : سورة الأنبياء - الآية ٣٠

سناء ورفعت كلّ إلى مدار * وتكونت العواصف والماء والنار * وتكونت الثمار والأعناب والأشجار * وكوّن الحيوان الأليف والوحش الكاسر * ومن التراب والطين الأحمر والدم والمرارة ومن سر الكون جبل آدم وحواء... وحلت فيها نسمتا بقدرة ملك النور)... والحي مزكي.

(وقال الحي العظيم في علاه قوله فكان كل شيء وقال سبحانه لتبدأ بأمري الحياة).

(وقال ربي ليسجد ملائكة النار لآدم... ولا يخالفون له قولاً ، فسجدوا إلا الشرير فقد أبى ، فأسره ربه أسرًا).

(أنا الرسول الطاهر. أمرني ربي أن اذهب وناد آدم وحواء زوجه بصوت سني (٥٤) علم آدم ليستنير قلبه (٥٥) وفهمه ليستنير عقله وجنانه (٥٦) كن أنسًا له أنت والملكان ، اللذان معك إلى العالم سيهبطان (٥٧) علمه وزوجه ، وذريته الحكمة كيلا يغويهم الشيطان (٥٨) علمهم الصلاة يقيمونها مسبحين لملك النور السامي ثلاث مرات في النهار ومرتين في الليل ، قل لهم اتخذوا لأنفسكم أزواجًا وتناسلوا منكم ليزداد عددكم) – كنزا ربا اليمين.

ثم توالت الوصايا على آدم وذريته...

وقال سبحانه : (لا تمجدوا الشمس والقمر * هو الله الذي أمر * فكان لهما ولهذه الكواكب هذا الضياء لكي ينيروا به الظلماء * فإذا نادى الحي العظيم سقطت كلها في قرار بهيم).

ويصف لنا الكتاب المقدس للصابئة المندائيين عالم الظلام...

(إِنَّا جَعَلَنَا الْكَوْنَ مَنازِلَ وَطَبَقَات ، مُكْتَمِلَاتٍ وَغَيْرَ مُكْتَمِلَات ، وَأَوْكَلْنَا بِكُلِّ طَبَقَةٍ حُرَّاسَا ، مَلَائِكَةً أَجْنَاسًا ، فَأَمَّا أَرْضُ النُّور ، فَقَدْ ثَبَّتْنَا فِيهَا الْأَثِيرِيِّينَ ، وَمَلَائِكَةَ النُّور ، وَزَيَّنَّاهَا بِمَصَابِيحَ تَدُور ، وَوَهَبْنَاهَا رِيَاحًا سَارِيَة وَمِيَاهًا جَارِيَة ، وَعَطَّرْنَاهَا بِالْأَرِيجِ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بَهِيج ، وَأَمَّا عَالَمُ الظَّلَام ، عَالَمُ الشُّرُور وَالْآثَامِ... فَأَرْضٌ مُقْفِرَةٌ مَسْعُورَة ، دُفِعَتْ إِلَىٰ أَقْصَىٰ الْجَنُوبِ ، بَعِيدًا عَنْ الْمَعْمُورَةُ).

هذه الصورة لعالم النور وعالم الظلام بمعنى السماوات والأرض قبل أن يعمر آدم وذريته الأرض بعد أن خلقها الله وازداد عددهم، أنزل عليهم كتبه المقدسة، وأوحى لأنبيائه الصالحين ليعبدوا الله جل جلاله، ويعيشون بنعمه وأرزاقه وينفذون وصاياه وتعاليمه التي أنزلها عليهم، ولأننا نبحث في الموسوعة المندائية سوف أركز على الخلق والتكوين وفق مفاهيم الدين الصابئي المندائي: الخليقة عند المندائيين تبدأ بسر، حيث جاء في الكتاب المقدس (الكنزا ربا):

(الثمر داخل الثمر والأثير داخل الأثير، والوعاء العظيم ذو الوقار... منه كانت الأوعية العظيمة المنتشرة أضويتها، الكثيرة أنوارها، قبلها لم يكن أحد، ثمار لا حدود لها وربوات لا عد لها، طلعت من الثمر العظيم الذي لا حد له، مسبحة للوعاء العظيم ذي الوقار الحال بالأثير العظيم).

(ومن مانا العظيم في أثير الحياة العظيم، صار يردنا العظيم الماء الجاري النقي لا حد له ولا عدد، تقوم عليها الأشجار فرحة مبهجة ممتلئة بالتسبيح... من يردنا العظيم بدأت الحياة وقومت نفسها مثلاً لمانا العظيم، الله العقل الأعظم الذي منه انبثقت ومنه طلبها الأول طلبت فكان الملائكة الأثريون الذين لا عدد لهم ولا حدود).

حين جرى يردنا الحياة الثانية نشأة (خلق الملائكة الأثريون) كما خلق الماء الحي، الملائكة الأثريون طلبوا من الحي العظيم (الله) أن يهبهم شيئًا من ضوءه ونوره... لتنزل به تحت المياه الفاصلة فتهيئ عالمًا.

نزل الملاك هيبل زيوا بأمر من الحي العظيم وسيطر على العالم السفلي، ثم نزل الملاك بثاهيل وبمساعدة الملاك المبجل أباثر وبأمر من الحي العظيم فصلب الأرض ورفع السماء، ومنحت الشمس ضياء والقمر نور والنجوم سناء، ووضعت كل في مدار، ثم أمر الحي العظيم بخلق آدم وحواء زوجة له. من الطين الأحمر (الصلصال) ومن الدم والمرارة وأسرار الكون خلق آدم وحواء وأولجت في جسديهما النشماثا (النفس)، بأمر ملك النور العظيم ذي الوقار، وحل الثمر داخل الثمر العظيم وبأمره سبحانه كان أثير الضياء العظيم.

ومن الحرارة الحية كان النور وبقدرة ملك النور السامي (الله) صارت الحياة وصار الثمر العظيم، وصار فيه يردنا ومن يردنا صار الماء البهيج، ومن المياه الحية نحن الحياة صرنا، وبعد أن صارت الحياة صار الظلام، ثم صار العوز والنقصان... لا يوجد حد للنور وقد صار بوجود الحي العظيم، الماء لا حد له وهو أقدم من الظلام، كذلك الماء أقدم من الأثريين لكن الملائكة الأثريون أقدم من الظلام، الخير أقدم من الشر، الدفء الحي من الحرارة الأكلة أقدم، أن الشر والعصيان والحرارة الأكلة والسحر والشعوذة رجس من بلد الظلام.

أمر الحي العظيم الملاك أباثر أن يذهب إلى المعمورة (الأرض) وبأمره تعالى تكثفت المياه العكرة وصارت يابسة، ثم أمر أن ترفع السماء، وأن تفجر الينابيع في الأرض لتجري المياه الحية سواقي وعيون وأنهار وبحار، ثم أمر فخلق آدم وحواء وذريتهم، ثم أمر أن تصدر ثلاثة أصوات:

- الصوت الأول تتكثف الأرض وتنبسط السماء.
- الصوت الثاني ترقرق الماء.
- بالصوت الثالث تنهض الأشجار وتطير الأطيار وتسبح الأسماك في البحار وتمتلئ الأرض بالحيوان من جميع الألوان.

هناك إشارات ذات دلالة في كتاب الكنزا ربا نوجزها باختصار:

إن الحياة بدأت باتحاد الضوء والماء وبقدر الحي العظيم (الله)، كما يشير الكتاب إلى نظرية التطور، حيث يذكر لنا أنه كان هناك جفنات (حافظات بذور الحياة) في أعماق المياه، وعندما تكونت التيارات المائية وتحركت هذه الجفنات التي فيها خلايا بدائية، وبمرور ربوات (ملايين) من السنين تعقدت هذه الخلايا، وكونت الحياة بكل أشكالها وألوانها.

نلاحظ من سياق المعلومات المتوفرة، أن الحياة صارت وفق مفاهيم كثيرة منها أسطورية ومنها روحانية ومنها علمية، ولكن الإيمان بالله جل جلاله وبقدراته

اللامحدودة يؤكد لنا أن الله جلت قدرته خلق كل شيء وبأمره كل شيء صار وهو موجود منذ الأزل، وقد سبق الوجود فهو سرمدي ليس له بداية وأزلي ليس له نهاية.

طبعًا هناك نظريات علمية فيزيائية وكيميائية وكونية تشير إلى الانفجار العظيم الذي حدث في الكون والتي صورها لنا الكتاب المقدس الكنزا ربا بصورة رائعة حول ما حدث لحظة الانفجار الكوني العظيم: بسم الحي العظيم.

حينما كانت الثمرة العظيمة بداخل الثمرة العظيمة وحينما كان الأثير بداخل الأثير، وحينما كان مانا العظيم مكنون هناك، ومنه تكونت المانات العظيمة انتشر بريقها وعظم نورها وما كان قبلها في الثمرة العظيمة شيء، فانتشر نورها بلا حدود أسرع من انتشار الصور، وجل نورها من أن يوصف باللسان والذي كان وقت إذ في تلك الثمرة ثم تكون منها آلاف مؤلفة من الثمار بلا نهاية، وملايين من المواطن.

ذكرنا بإيجاز الخلق والتكوين وفق الميثولوجيا القديمة، ونذكر بإيجاز الخلق والتكوين وفق المفهوم العلمي:

– الكون عمومًا تكون قبل ١٣,٧ مليار سنة خلالها مر بثلاث مراحل، والجزء الغامض من هذه المراحل هو جزء من الثانية الأولى بعد الانفجار الذي كان فيها الكون شديد الحرارة.

ومع تطور العلم مازال الانفجار العظيم مبنيًا على الحسابات والفرضيات، الكون بدأ يتشكل بعد مرور ذلك الجزء من الثانية الأولى وبدا يتطور، ففي هذه المرحلة التي تكون فيها أول البروتونات والإلكترونات والنيترونات، وتكونت هذه أنوية وذرات، ويتكون الهيدروجين المتعادل كهربائيًا ظهر إشعاع الميكروني الكوني (الإشعاعات الكهرومغناطيسية) والذي يستطيع الخبراء قياسه اليوم بالأجهزة الحديثة وبعد تكون الهيدروجين بدأ يتجمع مكونًا نجوم ومجرات وكوزارات وعناقيد من المجرات الكثيرة والهائلة وأجزاء وشظايا بالمليارات،

كانت في البدء درجات الحرارة عالية جدًا وبمرور الوقت بدأت هذه الحرارة العالية تنخفض شيء فشيء.

ينمو الكون بعد عدد من الثواني برحلة التأثر الضعيف الذي خلاله تنخفض درجة الحرارة بحيث تسمح لانفصال قوة الشد العالية (تأثر قوي عن قوى التأثر الكهرومغناطيسي والتأثر الضعيف) ، فيحصل الانتفاخ الكوني فيزداد حجم الكون عدة مرات، تتشكل خلالها جسيمات البناء الكوني الأولي، وتتحول بعض الفوتونات الهائلة العدد إلى جسيمات غير مستقرة مثل الكوارنات وهادرونات ثقيلة... بعد مرحلة الانتفاخ (التوسع الكوني) ترتفع نسبيًا درجة الحرارة وبعد أن كانت جميع القوى متحدة تبدأ الانفصال عن بعضها إلى قوة جاذبية وقوة عالية وقوة كهرومغناطيسية وغيرها من القوى غير المعروفة ، فيمتلئ الكون بالإشعاع والكوارنات والإلكترونات والنيترونات ، ثم تبدأ مرحلة تكون الكوارنات ومرحلة الهادرونات ومرحلة الليبتونات ومرحلة الفوتونات بعدها.

تنخفض درجات الحرارة بحيث يمكن للذرات أن تتكون وتبدأ البروتونات تتحد مع النيوترونات بواسطة الاندماج النووي، فتتكون كتلة الهيدروجين بنسبة ثلاثة أضعاف ما تكون في الهيليوم مع وجود عناصر أخرى مثل الليثيوم.

إذن بعد تكون كتلة الهيدروجين والهيليوم تستمر كثافة الكون بالانخفاض بسبب تمدد الكون ، وعندما تنفصل الفوتونات يصبح الكون شفافًا بعد أن كان مظلمًا معتمًا، بعدها تبدأ المجرات البدائية بالتكون من تجمعات النجوم أو أشباه النجوم في بداية تكوينها.

بعد اكتشاف وجود المادة المظلمة خلال القرن الماضي افتراضيًا بالحسابات باعتبار أن المادة المرئية لا تستطيع وحدها تكوين المجرات، مازالت الدراسات والحسابات الرياضية مستمرة ومازال العلماء يحلمون بغزو الفضاء الخارجي بإرسال مركبات الفضاء والمسبارات والمراقبة بالتلسكوبات العملاقة ، والعلم الحديث قد توصل أن مقدار الطاقة Darkenergy ٧٢% وأن المادة المظلمة Darkmatter ٢٣% وأن المساحة المرئية مقدارها ٤,٦% فقط.

وهذا موضوع شائك ومعقد ويحتاج إلى شروحات طويلة وتركيز عالي ودراسة تخصصية لفهم ماهية الانفجار العظيم فيزيائيًا بشكل واضح ومفهوم.

وهناك نظريات متعددة ظهرت حول الانفجار الكوني العظيم ونشوء الكون، مثال ذلك النظرية النسبية للعالم أينشتاين ١٩١٥، ونظرية الانفجار الكوني التي تعود تأسيسها للعالمين الروسي ألكسندر فريدمان والبلجيكي جورج لوماتر ١٩٢٢، ونظرية التمدد الكوني للعالم أدوين هابل، ونظرية الحالة الثابتة للكون (الكون اللامتناهي أو الخلق المستمر) للعلماء فريد هويل، توماس غولد، هيرمانيوندي ١٩٤٩، ونظرية الأكوان المتوازية (العالم هيو إيفريت) ونظرية العوالم المتعددة (الفيزيائي نيلز بور).

ولازال العلم والعلماء تشغلهم أمور فيزيائية واقعية وليست تخميناً، لم يتوصلوا حتى الآن إلى حلها، فنحن لازلنا لا نعرف ما هي المادة المظلمة ولا نعرف ما هي الطاقة المظلمة ولا نعرف كيف حدث الانفجار العظيم؟ من لا شيء!! لا نعرف لماذا خلق البروتون في عالمنا بهذه الكتلة وبهذه الشحنة بالذات؟.

وعلينا أن ندرك حقيقة ونقرها أن الدين المندائي دين روحاني خالص يؤمن بالروحانيات ويعتبر هذه الألمة ألمه (عالم) مادية فانية... وأن الخلود في عالم الأنوار (الجنة) ولهذا فالصابئة المندائية لا توجد في مناديهم (معابدهم) صور أو تماثيل ولا يقدسون إنسان مهما علت مكانته، ولا يؤمنون بالأولياء والأضرحة ولا يتشفعون بها، حتى الأنبياء والمرسلين لهم يعتبرونهم معلمين ووعاظ، ولكن عندما تنتهي أعمارهم ويعرجون إلى مشوني كشطة (عالم الحق) ويبدأون في الحياة الثانية الأبدية لأنهم لم يرتكبوا خطيئة خلال حياتهم في هذا العالم الفاني، أي عندما تذهب النشمثة (النفس) وتعود إلى الدموثة (المثيل) هنا يقدس اسم هذا النبي لأنه أصبح ملاك في عالم الحق وابتعد عن العوز والنقصان، حيث لا أوجاع ولا شيخوخة ولا موت ثاني.

(كلهم لطفاء طيبون ، وحكماء صادقون ، لا إساءة فيهم ولا خداع بعضهم يحل في منازل بعض لا يخطئون ولا بعض إلى بعض يسيئون ، معززون مكرمون ، كمثل أهداب العين متشابهون نواياهم بعض لبعض مكشوفة ، وأخبار ما تقدم وما تأخر لديهم معروفة ، ينير بعضهم بعضًا ، ويعطر بعضهم بعضًا. ويمدون الكشطا بعضهم إلى بعض وهم بمشيئة الله خالدون ، لا زوال لهم ولا يشيخون ، ولا يتوجعون ولا يضعفون ، لا يجوعون ولا يعطشون ، ولا يحترون ولا يبردون ، ولا يساء إليهم ولا يغضبون لا خبث في أشجارهم ، ولا مرارة في أثمارهم ، ولا ذبول في أزهارهم مواقعهم سامية وبحارهم هادية ، ومياههم جارية ، شفافون كالبلور ، جميعهم خاشعون ، للحي العظيم مسبحون). الكنزا ربا اليمين (التوحيد).

وبعد أن اطلعنا وأخذنا فكرة سريعة عن الخلق والتكوين لدى الأديان الموحدة وغير الموحدة كروحانيات ومثيولوجيات ، وتطرقنا بشيء من الإيجاز عن نظريات علمية مثل الانفجار الكبير ، الآن ندخل في صلب الموضوع ونبدأ بمناقشة موجزة عن الصابئة المندائيين بدءًا بالجذور والخلفيات اعتمادًا على ما ورد في الكتب الدينية المندائية وعلى الموروث المندائي وما نقلته لنا بعض المصادر الأمينة على قلتها وندرتها ، وما كتبه لنا عدد من الباحثين المنصفين وخاصة المعاصرين الذين عايشوا المندائيين واطلعوا عن قرب على حقيقتهم وأصالتهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقيدتهم التوحيدية...

ساعدني في ذلك انفتاح الصابئة المندائيين وترجمة كتبهم الدينية إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية ، وهناك محاولات تجري لترجمتها إلى لغات حية أخرى ، وظهور طبقة من المثقفين المندائيين الذين أعطوا أهمية لهذه البحوث ، واهتمام أصدقاء أبناء الطائفة من الكتاب والباحثين ، وتطور عدد من رجال الدين الأفاضل وحصولهم على شهادات أكاديمية عليا ، وكثرت الإصدارات المندائية على محدوديتها بالمقارنة بين الماضي والحاضر...

كل هذا سهَّل على الباحثين والكُتَّاب المعاصرين المنصفين أصحاب الضمائر الحية التقرب من الحقيقة ، فجاءت كثير من بحوثهم صادقة أمينة قريبة من

الحقيقة، ولكن يظل ابن الطائفة الباحث المثقف هو الأقرب لشعوره وإحساسه ومعايشته الواقع العملي للحياة المندائية وإطلاعه وفهمه للنصوص الدينية لأنها جزء من حياته اليومية يعيشها بكل جوارحه وقلبه، ونقول شكرًا للحي العظيم أصبح لدينا اليوم عدد لا يستهان به من الأساتذة المتخصصين في هذا الدين التوحيدي القديم قدم الحياة.